الشيخ الهواري من خلال المصادر المحلية

أ. د. دحو فغرور – جامعة وهران1

أ. تقي الدين بوكعبر

تعتبر مدينة وهران من أعرق المدن الجزائرية ؛خاصّة بعد الفتح الاسلامي لبلاد المغرب .فعلى مرّ الأزمنة حضيت المدينة بزيارة جملة من الرحّالة حلّوا بها ابتهجوا بها ، فوصفوها في كتاباتهم.منهم ابن حوقل الذي أتم كتابه حوالى سنة 367هـ | 977 م .أماّ زيارته فكانت أواخر القرن الرابع. أماّ العالم ابن خميس فقال أعجبني بالمغرب مدينتين وذكر وهران . كما زار وهران في القرن العاشر هـ الرحّالة محمد الوزان فقال عنها انها مدينة كبيرة حيث كانت تابعة للدولة الزيانية .

خلال هذه الفترة استقر و حسن المقام بها لعامّة الناس وخاصّتها من العلماء أمثال الشيخ سيدي الهواري الذي صارت إليه تنسب . هذا العالم الذي انتشر صيته في الآفاق وترجم له عدة أعلام منهم ابن صعد الذي يمكن اعتباره المصدر الذي يرجع إليه كل من يريد معرفة حياة الشيخ ، فهو قريب منه زمنيا كما التقى بأهم تلامذة الشيخ . المصدر الهام الاخر الذي كتب مطولا عن الشيخ –وإن كان نوعا ما متأخر بالمقارنة مع ابن صعد – هو ابن مريم صاحب البستان ، أما المصادر المتأخرة التى تحدثت عن الشيخ فنذكر منها كتابات الحافظ أبي راس الناصر المعسكري و كذلك الاغا بن عودة المازاري صاحب طلوع سعد السعود و الزياني صاحب دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران .

إنّ دور العلماء في استنهاض الهمم وتقويم مسار الأمم لا يكاد ينكره أحد .ومن هذا الباب جاءت هذه المحاولة للتعريف بأحد أبرز علماء المنطقة خدمة لكتابة التاريخ المحلي بمصادر محلية و تنويه بمجهودات علماء الجزائر في مجالات شتى وبخاصّة الكتابات التاريخية –من جهة– ومن جهة أخرى سعيا لفحص وتمحيص ومقارنة ما ورد في المصادر القديمة أمثال ابن صعد وابن مريم وما ورد في الكتابات المتأخرة مثل ابي راس و المازاري و الزياني ، حتى نتمكّن من الإلمام بالمنهاج والطريقة التى كان يكتب بها التاريخ ويدوّن.بمعنى آخر: هل كانوا يعتمدون فقط على ما ورد عند أسلافهم ؟ أم كان هناك تمحيص وتدقيق و نظر وتحقيق في ما وصلهم من روايات تاريخية ؟.

1 التعريف بسيدي الهواري :

أ اسمه و نسبه :

هو الشيخ محمد بن عمر بن عثمان بن اليسع بن عياشة بن سيد الناس بن خير الغياري المغراوي الهواري ؛ هكذا نسبه تلميذه ابراهيم التازي [1] ، أما ابو راس الناصر فذكر نسبا آخر ، فيه اختلاف طفيف وهو محمد بن عمر بن عثمان بن اليسع ين عياشة بن عكاشة بن سيد الناس المغراوي الهواري [2] .

يظهر من الروايتان أنّ هناك اختلاف في شجرة نسب الهواري بين المتقدمين و المتأخرين . بل أكثر من ذلك عند المتأخرين هناك اختلاف كبير حول كونه شريف أم لا ، فأبو راس يؤكد على نسبه البربري إذ يقول محمد الهواري نسبة إلى هوارة و أولاد هوار وهو ابن مازيغ بن برنس [3] ، وإلى هذا أشار صاحب رحلة الحقيقة و المجاز فقال ناقلا عن ابي راس : " ومن علماء

البربر و صلحائهم عالم وهران و صالحها سيدي محمد الهواري " [4] . أما الأغا بن عودة المازاري فيري أنه شريف حسني من دون أن يذكر نسبه الكامل [5] ، أما الزياني فيورد له نسبه الحسني فيقول : " هو محمد بن عمر بن عثمان بن عياشة بن سيد الناس بن احمد بن محمد بن علي بن الامير أمغار بن ابي عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن موسى بن عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن محمد بن الحسن بن علي بن ابي طالب " [6] . والظاهر من خلال ما تمّ الاطلاع عليه في كتب السير عن الشيخ أنه ليس بشريف. فلو كان كذلك لما غفل ابن صعد عن ذكر هذه المنقبة له و هو أقدم من أرّخ له . وكل من كتب عن الهواري عيال على ابن صعد وما كان لهذه الجزئية أن تفوت النسّابة أبا راس الناصر . ومن القرائن التي يمكن أن نستشهد بها على أنه بربري قول ابن صعد أنه كان يعظّم و يكرم الشرفاء [7] ، ولو كان شريفا لقال أنّه كذلك . و تعظيم وحب أهل البيت مما جبل عليه البربر. و التاريخ الاسلامي شاهد على ذلك ... وما يضر الشيخ إن لم يكن شريفا . فالله يرفع صاحب العلم و العمل ولو كان حبشيّا، و يضع الفاسق وإن كان شريفا .ولله در أبي تراب حين قال:

لعمرك ما المرء إلاّ بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الاسلام سلمان فارس و وضع الشرك الشريف أبا لهب

ولد الشيخ في أحواز كليميتو حوالى 20 كلم شرق مستغانم حوالى سنة 571 هـ[8] ، والده هو عمر من حملة القرآن ومن أكابر قومه و افاضلهم [9] .

ب شيوخه و رحلاته :

لقد فصّل ابن صعد في ذكر رحلات الشيخ و التي مستهّلها كان نحو كليميتو وهو دون سن العاشرة ، ثم نحو بجاية التي بقي بها خمس سنوات تتلمذ فيها على يد مشايخ عدّة منهم :

- عبد الرحمن الوغليسي .
- أحمد بن دريس .

و يظهر أنه أعجب بإقامته بمدينة بجاية جدا حيث يقول فيها:

لو وصفت لك ما رأيت في بجاية و هي هيا بلد الورع و العلم و ترابي حقيقيا

ومن بجاية توجه نحو فاس حوالى سنة 586 هـ ، أخذ فيها عن حافظ المغرب موسيى العبدوسي و زعيم الفقهاء و المتكلمين أحمد القباب وبها أكمل حفظ المدوّنة .و من فاس توجه إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج ... و أثناء هذه الرحلة مرّ بمصر ولقي بها الحافظ العراقي وغيره وأخذ عنهم [10] ثم توجّه نحو بيت المقدس .وبعد أداء الفريضة رجع إلى وهران التي استقر بها [11] .

ج العلوم التي أتقنها و مؤلفاته :

كان الشيخ الهواري ملمّا بعلوم جمة . فمن العلوم التي أتقنها بل وحفظ متونها :

– علم القراءات : حيث كان يحفظ متن الشاطبية و الألفية .

– علم التفسير : كان يحفظ تفسير ابن عطية و التفسير الكبير للرازي .

– الفقه : كان متبحرا في مذهب مالك وقال عنه أبو راس : " انتهت اليه الرياسة بوهران في مذهب الامام مالك "[12] ، يحفظ رسالة ابن زيد القيرواني و شرحها للقاضي عبد الوهاب ومدونة البراذعي و سيدي خليل و كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب وكتب جامع الأمّهات لابن الحاجب .

– علم التوحيد : كان الشيخ من ائمة علم التوحيد و كيف لا و***السنوسي*** *تلميذ تلميذه* ***التازي*** : من محفوظاته كتاب الإرشاد في علوم الاعتقاد لإمام الحرمين الشريفين.[13]

أما مؤلفاته فهي :

كتاب **التسهيل** و كتاب **السهو و التنبيه** و كتاب **التبيان**[14] و يظهر أن الشيخ كان يكتب بالعامّية "الدارجة " وهذا ربما مراعاة لمستوى من يقرأ ، و إلاّ فهو بلا شك يتقن اللغة العربية وكيف لا وهو يحفظ الألفية و غيرها. وهو أمر جليّ نلمسه من صدر مخطوط السّهو و التنبيه حيث ابتدأه بقوله :

كِتَابٌ فِيهِ تَدرِيجٌ للصِغَارِ لِابنِ عُمَرَ مُحَمَدَ الهُوَارِي

مُختَصَرٌ مَجمُوعٌ فِيهِ فَوَائِدُ وَ تَبصِرَةٌ للمُبتَدِي الُمجتَهِدُ

الصَلاَةُ لهَاَ شُرُوطٌ وَ عُلُومٌ مُختَصُ بِهَا وَ بَابُهَا عَظِيمٌ

تقع هذه المنظومة في 22 لوحة قسّمها إلى أبواب و فصول عدد أبياتها 455 بيتا حيث جاء في آخرها

وَ جُملَةُ الأَبياَتِ فِي الكِتَابِ أَربَعَ مَائَةَ مَعدُودَةً بِالحِسَابِ

وَخَمسَةً وَ خَمسِينَ زَائِدَةً عَلَى الَتِي ذَكَرتُ وَكَانَ القَصدُ بِالأَولاَدِ

وَ لِلمُبتَدِئِ المجتَهِدِ تَبصِرَةٌ يَعرِفُ بِهَا الصَلاَةَ وَ الطَهَارَةَ

وَكُلُ مَا فِيهَا مِن الأَبوَابِ مَفهُومًا حَاضِرَةَ الجَوَابِ

البَيَانُ وَ التَحصِيلُ فِي الكِتَابِ وَ اللهُ الُموَفِقُ لِلصَوَابِ

ثُمَ الصَلاَةُ عَلَى إمامِ الُمرسَلِينَ مُحَمَدٍ المختاَرِ شَفِيعُ الُمذنِبِينَ

اما عن طلبته فقد توافدوا عليه من كل مكان و أشهرهم على الاطلاق خليفته ابراهيم التازي [15] ، ومنهم الشيخ أحمد بن مديل المعروف بابن النقاش[16].

يظهر أن الشيخ كان محبّا للعلم ، طالبا له حاثّ الناس على طلبه وتحرّي طلبه من أهل الاختصاص إذ يقول : " العلم من أهل الدين يستقى " ، و لا بأس أن نشير هنا الى ما قاله ابن عاشر في نظمه:

يصحب شيخا عارف المسالك يقيه في طريقه المهالك

يـذكره الله اذا رأه و يوصل العبد الى مولاه

هذا مصداقا لقول ربنا سبحانه وتعالى : " يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين "[17] .

2 التصوف عند الشيخ الهواري :

يبدو أن الشيخ بلغ درجة عالية في سلّم المنازل حتى لقّب بالقطب بل ووصفه ابن مريم فقال : " شيخ المشايخ لسان الحق جنيد أقرانه و حكيم أهل زمانه " ، بل اكثر من ذلك جعله مقياسا لغيره إذ قال : " الولي الكبير سيد احمد الغماري كان في

الولاية من أقران الشيخ محمد الهواري " [18]، و يقول صاحب ذيل الديباج : " اجمعوا على ولايته كالشيخ ابي مدين المغيث "[19].ويظهر أن تصوّف الشيخ كان تصوّفا معتدلا ، وغفر الله لمن قال 'لا نريد صوفية تشطح ولا سلفية تنطح نريد وسطية تنفع'. قال ابن صعد : " لم يكن في زمانه أحرص منه على العبادة و مجاهدة بالصيام و القيام صابرا محتسبا " و حسب ابن صعد دائما ،كان للشيخ زوجة و أولاد وهذا من كمال ولايته[20]. وقد كان الشيخ ملازما لقيام الليل حيث كان يقول : " لكن ما زي يرقاد " و قال : " أهل الرقاد مثل الربيع اليابس " [21] و كان أكثر كلامه التبشير بسعة رحمة الله و عفوه و في ذلك يقول :

و اعمل لنفسك ، إنّ العمر منقرض و الشيب قد لاح و الجيران قد رحلوا[22]

كان الشيخ يتحرى الحلال في كل شيء و طلب الحلال حسب تعبير ابن صعد هو الذي عليه علماء الشريعة و الحقيقة[23]. و الشريعة كما قال الإمام القشيري هي أن تعبد الله و الحقيقة هي أن تشهده شهود لما قضى وقدّر و أخفى و أظهر . مع ذلك وبالرغم ما وصل إليه الشيخ من مراتب العلم فكان – رحمه الله – يزهد في شراء الكتب و اقتنائها[24] لكن بالنظر إلى ما كان يحفظه من متون فإنه لم يكن بحاجة إليها ، فالذي يحفظ مثل تلك المتون وله قدرة على التحليل و الاستنباط و المقارنة جدير به أن يكون عالما متبحّرا متحرّرا .

3 علاقته بالسلطة و المجتمع :

يظهر أن الشيخ كان نافرا من السلطة و الحاكم ، فقد كان يردّد عبارة : " مالي وللملوك " [25] ، لكنه كان في نفس الوقت قريبا جدا من العامة .فقد كان الشيخ من الوعاظ الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر وكان أسلوبه في الوعظ ممزوجا بين الترغيب و الترهيب فكان يدعوا إلى الله على بصيرة وعلى طريقة الفقهاء الزهاد [26] . فكان إذا حضر مجلسه الأغنياء و أصحاب الأموال دعاهم الى الله بطريق الخوف وذكرهم بآيات الرجاء و حسن الظن بالله وكان يحثهم على اخراج الزكاة و يرشدهم إلى فوائد طلب الرزق بالحلال [27]، ما جعل الملوك و العامة تفزع إليه في نوائب الدهر وشدائده فهذا أحمد الزياني ملك تلمسان يرجوا منه أن يدعوا الله أن يرد السلطان أبا فارس الحفصي عندما أراد غزو تلمسان[28]. ومن كراماته – وما أكثرها [29]– أن امرأة اختطف الاسبان ابنها فلاذت به بدل أن تتوجه الى الحكام ايقانا منها بضعفهم ، وهذا حتى ينقذه و يحرره منهم.وبعبارة وجيزة، لقدكان الشيخ مشهورا وكانت له مكانة كبيرة في مجتمعه مما جعل حكام زمانه يهابونه و يتمنون رضاه .

4 الهواري و الاحتلال الاسباني لوهران :

من بين أوجه الاختلاف بين المصادر القديمة التي أرخت لحياة الشيخ ، واقصد بها ابن صعد وابن مريم و بين المصادر المتأخرة ، دور الشيخ في الاحتلال الإسباني لوهران . حيث تشير المصادر المتأخرة أن هذا الاحتلال نتيجة دعاء الشيخ على أهل وهران الذين قتلوا ابنه فقال الشيخ : " روحي يا وهران الفاسقة يا كثيرة الجور و البغي و الطارقة يا ذات الاهل الباغية السارقة اني بعتك بيعة لنصاري مالقة و جالقة الى يوم البعث و التالقة مهما ترجعي فانت طالقة "[30] ، وممن أكد هذه القصة ابن سحنون الراشدي[31]وصاحب القول الاوسط [32] و الاغا بن عودة المازاري [33] . في حين أن أبا راس نجده في كتاب عجائب الاسفار يؤكد وقوع هذه الحادثة[34] ، أما في كتابه الحلل السندسية فنجده يقول تحت عنوان تنبيه : " لم يدخل النصاري لوهران لدعوة الشيخ الهواري كما توهم " [35] , و الذين قاولوا بهذه القصة استدلوا بحديث أن لله عبادا لو أقسموا عليه لبرهم . و سواءا ان الشيخ دعى أو لم يدعى الله فان الاحتلال الاسباني لوهران و بعض المدن الساحلية الجزائرية كان في ذلك الوقت حتمية نتيجة

لما كانت تعرفه المنطقة من ضعف سياسي و عسكري ، و نتيجة قوة الاسبان و تطبيقهم لسياسة حروب الاسترداد . كان احتلال وهران سنة 1509 اي 72 بعد وفات الشيخ الهواري مع ملاحظة أن المصادر القديمة و القريبة من فترة الشيخ لم تشر إلى هذه القصة حسب اطلاعي – و الله اعلم – .

5 وفات الشيخ ومدفنه :

لا خلاف بين المصادر و المراجع التى تمكنت من الاطلاع عليها أن الشيخ توفي صبيحة يوم السبت 12 ربيع الثاني 843 هـ الموافق لـ 29 سبتمبر 1439 ، عن عمر ناهز 92 سنة ودفن بوهران .

أما حول قبره فقد أشار يحي بوعزيز إلى الخلاف الموجود حول تحديد مكانه [36] ، لكن بعض القرائن و الشواهد تدل على أنه مدفون بوهران — على الأقل قبل الاحتلال الفرنسي – ومن ذلك قول أحد الشعراء وهو يحث العثمانيين على تحرير وهران :و احلل بتلك الأبطح و الربى و استصرخن دفينها الاواها قال أبو راس أراد بدفينها الشيخ محمد الهواري ، وهذا يرد قول من قال انه مدفون بجبل تارقة [37]. و قال المازاري : " لا تلتفت لمن يقول أنه مدفون بسيدي المسعود بتارقة و بسيدي سعيد بشافع فإن ذلك من خرافات العامة " [38] ، وقال محمد بن عبد الكريم الجزائري : " ومازال قبره بوهران يزار هناك "[39].

حاولت من خلال هذا العمل تتبع حياة ومسار الشيخ الهواري من خلال المصادر التى ارخت وكتبت عن حياته ، و إنه لمن الغريب أن نجد بعض الغموض يلف بعض جوانب حياته خاصة قضية مدفنه . بل اكثر من ذلك نجد المصادر متضاربة فيما بينها خاصة اشكالية نسبه بين القدماء الذين لم يشيروا لها ، وبين المتأخرين المؤكدين على شرفه .

هذا الغموض راجع إلى أن من دَوَنَ حياته اهتم بكراماته وذكر خوارقه ، وهذه سمت ذلك العصر. العصر الذي طغت فيه النزعة الصوفية ، لكن الأكيد أن الشيخ اتبع طريقة معتدلة في التصوف طريقة التى قال عنها أرباب هذا الفن طريقنا هذا مقيد بالكتاب و السنة ، فهو إلى جانب كونه صوفيا ذا كرامات عند العامة ، فهو كذلك فقيه أصولي مؤلف ومصلح اجتماعي .

أرجو أن تكون هذه المحاولة اسهمت في تسليط الضوء ولو بشكل ضعيف حول هذه الشخصية التى لا يزال إلى اليوم تأثيرها قائما لدى عامة الناس .

الهوامش:

[1] ابن صعد الأنصاري التلمساني روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين ، تحقيق يحي بوعزيزدار البصائر الجزائر 2009 ،ص 95

[2] أبو راس: الحلل السندسية في شأن وهران و الجزيرة الأندلسية، تحقيق سليمة بن معمر، دار الصين للطباعة و النشر ن ط 01،ص204

[3] ابو راس الناصر : عجائب الأسفار و لطائف الاخبار، تحقيق محمد غالم، منشورات crasc2005، ج01،ص111.

[4] بن عبد الله المعسكري : الحقيقة و المجاز في الرحلة إلى الحجاز ، تحقيق مخلوفي ميلود المحفوظي ، ط 01 ، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف الجزائر 2011 ، ص 145

[5] المازاري الأغا بن عودة : طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و اسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، دراسة وتحقيق يحي بوعزيز ، ط 01 ، ج 01 ، دار البصائر الجزائر 2007 ، ص 68

[6] الزياني محمد بن يوسف : دليل الحيران و أنيس السهران في اخبار مدينة وهران ، تقديم وتحقيق المهدي بوعبدلي ، الجزائر : الشركة الوكنية للنشر و التوزيع , 1978.، ص **37**

[7] ابن صعد : نفس المصدر ، ص **98**

[8] يحي بوعزيز : اعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة ، ج 02 ، دار البصائر الجزائر 2009 ، ص **211**

[9] ابن صعد : نفس المصدر ، ص **36**

[10] الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف ، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة ، ج 02 ، ص **174**

[11]ابن صعد : نفس المصدر ، ص **40**، **41**

[12] أبو راس : عجائب الاسفار،ص**112**

[13] ابن صعد:نفس المصدر، ص**82–84**

[14] عادل نويهض: معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحديث ، ط 03 ، مؤسسة نويهض الثقافية 1983 , ، ص **337**

[15] وقفنا له على منظومة تقع في لوحتين

[16]ابو راس : الحلل السندسية ، ص **205**

[17] سورة التوبة الاية **119**.

[18] بن مريم التلمساني : البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية 1986 . ، ص ص **38** و **58**

[19]أبو راس : الحلل ، ص **204**

[20] ابن صعد : نفس المصدر ، ص **38**، **43**

[21] نفس المصدر ، ص **48**

[24] نفسه ، ص **47**

[25] ابو راس : الحلل السندسية ، ص **204**

[26] ابن صعد : نفس المصدر ، ص **43**

[27] نفس المصدر ، ص **44**

[28] ابو راس : الحلل السندسية ، ص **204**

[29] انفرد ابن مريم عن غره ممن ترجم للهواري بذكر عدد كبير من كراماته و خوارقه فراجعه

[30] يحي بوعزيز : اعلام الفكر، ص214

31 بن سحنون الراشدي : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي ، الجزائر : مطبعة البعث , 1973 ، ص **230**

[32] الشقراني احمد بن عبد الرحمن الراشدي : القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط ، تحقيق و تقديم ناصر الدين سعيدوني، ط 01 ، دار الغرب الاسلامي لبنان 1999 . ، ص **61**

[33] المازاري: نفس المصدر ص **73**

[34] أبو راس الناصر : عجائب الأسفار ، ص 112

35 أبو راس: الحلل السندسية ، ص **205**

[36] بوعزيز : اعلام الفكر و الثقافة، ص **215**

37 أبو راس: الحلل السندسية ، ص**209**

[38] المازاري: نفس المصدر ص **71**

[39] ابو راس : فتح الهص و منته بالتحدث بفضل ربي و نعمتهتحقيق محمد بن بد الكريم ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1990، ص**36**